المقالة المنشورة بعد الدكتوراه:

مستويات التحليل السيميائي للنص الأدبي؛

مقاربة سيميائية لرسالة عمر بن الخطاب في القضاء

د. خلفاوي مسعودة

قسم اللغة العربية و آدابها

جامعة الجلفة

أولاً. تمهـــيد حول السيميائية ومستويات التلقـــي:

تتحدد السيميولوجيا أو السيميوطيقا باعتبارها علم الدلائل؛ فهي ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات أيًّا كان مصدرها لغويًا أو سُنَنِيًا أومؤشريا[1]، ولهذا فقد تعددت اتجاهاتها من سيميائية التواصل، وسيميائية الدلالة، وسيمائية الثقافة، ولعل ما يهمنا هنا هو ما يتعلق بالسيميائيات الأدبية التي انقسمت إلى فروع حسب توجهات الباحثين في هذا المجال؛ كالسيمائية السردية التي تطورت على يد غريماس وبريموند وغيرهما، ومن قبل كان قد بذرها بروب في دراسة الخرافة، والسيميائية التحويلية التي تبنتها جوليا كريستيفا، والتأويلية التي مثلها أمبرتوإيكو، والسيمائية الشعرية[2].

وأما مستويات التحليل السيميائي للنص الأدبي، فإنها تختلف اختلافًا كبيرًا، لاختلاف الاتجاهات السيميائية المهتمة بهذه الدراسات، ومن ذلك اقتراح مولينو طريقة للتعامل مع النصوص، تحتوى على مستويات ثلاث هي: المستوى الشعري، والمستوى الحسي، والمستوى المحايد (التركيبي)، و هو ما نتناوله في هذه المقالة.

وحسب جان مولينو فإنَّ سيميولوجيا الأشكال الرمزية التي تنبثق عنها هذه المستويات هي وجه آخر من أوجه سيميولوجيا الدلالة، تلك التي تتحدد فيها أنظمة العلامات بطابع ما فيها من دلالات[3]؛ فاللغة لا تستنفذ كل إمكانيات التواصل، فنحن نتواصل توفرت القصدية أم لم تتوفر، بكل الأشياء الطبيعية والثقافية، سواء أكانت اعتباطية أم غير اعتباطية[4]، حيث يبرز مولينو مظاهر الحدث الرمزي المختلفة مثل النصوص والمأثورات الشفوية والقرارات والتنظيمات والأنظمة، إلاّ أن النصوص لها أهمية كبيرة؛ فهو يعرفها بأنها الأنموذج الرمزي الأكثر ظهوراً في الحياة وهذا الأنموذج يتجلى في الإنتاجات الصريحة أو الشفوية أو المخلدة أو المنتسخة أو التي أنتجتها العبقرية الشعبية من نحو تلك الآثار التي لا يعرف لها مؤلف[5]. وقد حدد مولينو لدراسة النصوص باعتبارها لا تخرج عن إطار الإنتاج والتلقي المستويات الثلاثة المذكورة آنفًا.

أول الأمر ملاحظة دلالة المستوى المحايد؛ إذ فيه يدرس ما في النص من هيئات وترددات[6]؛أي أنه يدرس الجوانب الشكلية للنص هيأتها ومحتواها الشكلي أي شكل التعبير، وسمي محايدا -كما يقول السرغيني- لأنه يمكن من دراسة الموضوع دراسة شمولية دون أن يقدم حكمًا عنه، وتنشأ المقابلة بين نتائج هذا المستوى المحايد وبين أحداث نفسية أو اجتماعية أو ثقافية، فالمستوى المحايد هو دراسة موطئة رغم مساهمتها في إجلاء وتوضيح معنى النص، ويتحقق حيادها حين لا تصدر أحكاما[7]، أي أن النص غير مرتبط بأمور خارجية من خلال هذا المستوى.

إن قراءة النص وفق سيميائية مولينو تعني تجميع الكلمات والجمل والعلل والموضوعات من أجل التوصل إلى هيئة جديدة تؤدي إلى استخلاص دلالة جديدة لهذا النص، ومولينو في منهجه يعير عناية كبرى لثلاث مسائل هي: الإنتاج والتلقي والشكل الذي أنجز فيه النص، على أن عملية التحليل السيميائي للنصوص تعتمد إجراءين هامين منفصلين هما الوصف والتفسير؛ فالوصف يظهر من خلال الدراسة المعجمية والصرفية والنحوية والتحويلية وغير ذلك؛ أي وصف البناء الشكلي للنص ومكوناته[8]،ويضاف إلى ذلك وصف المعنى في مستواه السطحي الأول وهو معنى في الغالب متعلق بهذه البنية التركيبية. أمَّا التفسير فيعني البحث عن علاقات النص بمحتواه ثم بالمناسبات التي رأى فيها هذا النص النور، كما يعني الالتجاء إلى علوم النفس والاجتماع والألسنة من أجل أن يستعير المناهج منها والنتائج.

ويفهم من المستوى الشعري المستوى الإبداعي في النص؛ ذلك أن الشعر إبداع دلالي وشكلي تظهر فيه السمات الدلالية الخارقة للعادة ، وحسب السرغيني فإن هذا المستوى عند جان مولينو يتعلق بالإسهامات الثقافية والسياسية والمادية التي عملت جميعًا على إنجاز هذا العمل لأن كل حدث سيميولوجي لابد أن يكون إنتاجيًا، وكل إنتاج لابد أن يكون إبداعيًا وبما هو كذلك فهو لا ينبغي أن يضيق حتى يصبح عبارة عن شرح ثقافي محض أو عن مشروع تنظيري[9]؛ إذن فكل إنتاج إبداع وكل إبداع له مميزاته وخصائصه التي يدرسها هذا المستوى الشعري ، مركزًا على جانب اغترافها من غيرها من البنية الثقافية التي سبقتها مبرزًا الجوانب الإبداعية التي جعلت من الحدث السيميائي الذي هو النص إبداعًا، وليس مجرد إعادة أو شرح لما هو موجود من قبل. فالمستوى الشعري لا يعني الإبداع الدلالي أو تطور الإنتاج الدلالي وتوليد المعنى عن معان سبقت في نصوص لأخرى فقط، لكنه يمثل أيضا الإبداع الفني في صنع المعنى سواء أكان المعنى عميقًا أم لا، إنَّه يتعلق بشكل المعنى والتجديد فيه بالمقارنة بنصوص أسبق منه، فهو يتوجه إلى ما قصده الجرجاني بالنظم حين يقول : «ولو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوه لكان ينبغي ألاَّ يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه»[10]، فيدرس المستوى السطحي للمعنى، ويربطه بالسابق، أما تسميته بالشعري ففي رأيي أنها تعود إلى معنى الإبداع في حد ذاته فالشعر إبداع والمستوى الشعري بحث في الإبداع عن طريق الربط بالنصوص السابقة ولهذا ارتأينا أن تبقى

تسمية المستوى الشعري كما هي في دراسة نص غير شعري تجنبًا لتغيير المصطلحات والتي لن تكون عائقًا في فهم المنهج وتطبيقه.

ويتعلق المستوى الحسي بالتلقي؛ إذ يتوجه الإنتاج الأدبي إلى القارئ، وليس ضروريًا أن يوافق هذا التوجه أفق الانتظار الأدبي والاجتماعي، ولهذا يؤكد مولينو أنه في إطار الرمزي لا يصح أن ينوب عن المستهلك ولا المستهلك عن المنتج كما لا يصح أن ينوب الباث عن المتلقي، ولا المتلقي عن الباث ؛ إذ أن هؤلاء جميعا لا يتوفرون على رأي موحد اتجاه هذا الإنتاج الأدبي[11]، والقارئ يقوم بعملية سيميوطيقية أثناء تدرجه في فهم النص، حيث يكون الفهم حصيلة قراءة ثانية. ففي سيميوطقيا الشعر نميز بين مرحلتين في القراءة: على القارئ قبل الوصول الى الدلالة أن يبدأ بحل شفرة القصيدة بالقراءة الأولى للنص كله، حيث يتمُّ هنا تفسير أولي وهنا يعتمد القارئ على كفاءته اللغوية، فيشعر بلا نحوية النص وتصبح الكفاءة الأدبية مطلوبة من القارئ، وفي مرحلة ثانية تكون القراءة الاسترجاعية أو التأويلية الحقيقية، فالقارئ يراجع ويقارن ويعدل باستمرار ما قرأ، ويكون النص تنويعًا لبنية واحد، تكون الوحدة الدلالية فيها باعتبارها كُلاًّ متكاملاً، بينما وحدة المعنى فتوجد في العبارات والجمل[12]، ولهذا فالتحليل السيميائي للنصوص يرى الخطابات لا على أنها علامة كبيرة أو مجموع علامات، ولكن على أنها حاصل معنى يقدمه التلفظ[13]. وعلى هذا فإن التحليل الذي انطلق من الكشف عن البنية المنطقية في المستوى الشعري لا بد أن يجد علاقات المعنى أو مسارات المعنى وكيفية تشابكها. وهذا العمل جاء في المستوى الحسي لسبب بسيط هو أن المتقي هو الذي ينتج المعنى الآن، فهو الذي يوجد العلاقات الدلالية بين هذه البنى الثنائية التي كشفها من المستوى الأول وهو الشعري، ويذكر مولينو في هذا المستوى بعض المظاهر التي تساهم في استجلاء بنية علاقات المعنى؛ و أولها الشعار، وهو ليس مرادفًا للفرضية، وإنما هدفه إثارة رد الفعل، فهو لا يتوفر على ما تتوفر عليه الفرضية من ميل إلى الحقيقة ميلاً دقيقًا، وثانيها البيان الذي يعكس موقفًا فرديًا أو جماعيًا كما يعكس أحيانًا اتجاهًا أو تيارًا في الأدب، فهو إذا نظام من الأفكار والمفاهيم صاغتهما جماعة من المبدعين[14]، وهاتين النقطتين تتعلقان بالمبدع، فالعلم بهما أو على الأقل مراعاة وجودهما يسهل عملية القراءة ويوجهها التوجه الصحيح، وواضح أن هاتين النقطتين تحيلان على رؤى خارج نصية، وثالثها الشميلة النقدية المنسجمة التي لا يفرق فيها بين المؤلف ومؤلفه، ورابعها التفسير الذي يجلو غموض النص، ويقوم به المختصون القادرون على وضع الأسئلة وإيجاد الأجوبة وهذا التفسير يحيل على جمالية التلقي[15].

وخلاصة الأمر أنه في المستوى التركيبي المحايد كما يسميه مولينو يتم التعرف على الشكل الذي يقدم هذه الوحدة الدلالية، الشكل بكل جزئياته ومساهمته في إجلاء المعنى، ثم يكون الانتقال من البنية الشكلية إلى البنية السطحية للمعنى من خلال دراسة المستوى الشعري حيث يتم التعرف على المعنى الذي يبسطه ظاهر النص، ويربط هذا بما سبقه من نصوص بالإضافة إلى استخراج المظاهر الدلالية البارزة في النص، ومن الضروري في الدراسة السيميائية الولوج إلى عمق المعنى، ويكون ذلك في المستوى الثالث الحسي، حيث يتم ربط

مسارات المعنى وتوضيحها وهنا يكون على الدارس أن يلم بكل دقائق المميزات وأن يبحث في تفصيل العلاقات المعنوية ، فهذه المستويات تتكامل فيما بينها لتبلغ الهدف المتوخى من التحليل السيميائي بالوصول إلى عمق المعنى وإبراز خصائص النص وبنياته الشكلية والمضمونية.

ثانيًا. دراسة تطبيقية على رسالة[16] عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي موسى الأشعري:

I.المستوى المحايد (التركيبي): ويعني تحليل الشكل الذي أنجز فيه النص[17].

1. البنى الافرادية:

أ_ السجلات: وهي الألفاظ التي استخدمها الباث من حيث وضوحها أو غموضها، جدتها أو قدمها[18]، والألفاظ التي استخدمها عمر رضي الله عنه في نصِّه هذا تدور في فلك موضوع القضاء، وهذه ألفاظ صالحة لكل زمان ومكان–مع مراعاة اللغة– فهي ذات شيوع ، ولا غموض فيها؛ خذ أي مثال من الألفاظ في النص فإنك ستجده دالاً على ما يدل عليه في العرف عند العرب آنذاك، وكذلك حاليا.

أما من حيث الجِدّة والقدم فإن هذه المعاني كانت متداولة منذ الجاهلية، كالصلح مثلا والباطل والحيف، والبيِّنة، وهناك ألفاظ حدد الإسلام معانيها طبقا لما جاء به فأصبحت لها مدلولات ترتبط بهذا الدين بعد ما كانت عامة كالكتاب والسنة، والفريضة ، وهكذا فقد ارتبطت مدلولاتها بمجالات جديدة، واكتسبت معاني إضافية أو تخصيصية.

ب_ الحقول اللغوية في النص (المصطلحات):

استعمل الأسماء في النَّص بنسبة 69,2 % ، والأفعال 30,7% ؛ وهي نسب متباعدة تفوق فيها الأسماء الأفعال بأكثر من النصف، فإن أردنا تفسير هذا المعطى، فإننا نعود إلى ميزة الأسماء وخصائصها بالمقارنة بالأفعال، والأسماء ذات دلالة على الرتابة والاستقرار والثبات، وهذا ما يميز النص، بعكس الأفعال الدالة على الحركة والانفعال والتجدد، وهذا المعطى المتمثل في ارتفاع نسبة الأسماء يبدو مناسبًا تمامًا لطبيعة النص وهدفه؛ فهو نص رسالة مبني على فكر قار عقلي، مواد ذهنية تتعلق بالقضاء فلا تحتاج الحركة.

وبالنسبة للأسماء فإن ورود المعرفة أكثر بكثير من المشتقات والنكرات وهذا إنما يدل على أن الباث لا يريد أن يعرف متلقيه بمعان عامة، ولكن يربط بين الدلالات ليصل إلى توضيح معالم وعوالق معان خاصة تتعلق بحقل القضاء بعينه.

ج_ الصفات: تعني لغة النص من حيث الحسي والمعنوي والواقع والرمز[19].

أمَّا الحسي والمعنوي في مفردات النص فيرجع إلى طبيعة "الموضوعة"؛ فالنص يتكلم عن القضاء، فعل يجري بين المادية في الممارسة والمعنوية في الفكرة، وكل ألفاظ النص التي استعملت، قد تدل على مشار إليه مادي أو معنوي، أو مادي من زاوية ومعنوي من زاوية أخرى، ومثال الأول: الناس، تكلم، كتاب،... ومثال الثاني صفات مثل: حرام، فهم...، ومثال الثالث الصلح.

وأمَّا من ناحية الواقع والرمز، فإن النص خلو من الرموز ذات التأويلات، والتي تتطلب فلسفة للمعنى وتأويلية له، إنما النص يتألف من معان دالة على وجه الحقيقة لا مجاز فيها.

د_ التقابل والجناس: ادعى ≠ أنكر الحق ≠ الباطل ، لا يطمع شريف في حيفك ≠ لا ييأس ضعيف من عدلك ، أحل حراما ≠ حرم حلالا ، مراجعة الحق ≠ التمادي في الباطل.

ولدينا دلالات "شريف"، "ضعيف":

- شريف
  - من الشرف، وقد لا يكون عالي المكانة
  - علو المكانة بين القوم.
- ضعيف
  - ضعف جسدي (قاصر)، ضعف مادي (فقر)
  - ضعف معنوي (قليل المكانة)، ولو أن المادي يؤدي إلى المعنوي.

– الفهم فيما تلجلج: يقال "فهم كذا" و"الفهم لكذا"، باستعمال اللام، وليس باستعمال "في" مثل "الفهم فيما تلجلج"، وهذا يعني أنه استعمل "في" للدلالة على الضمنية، فالتلجلج يكون داخل الصدر كما قال، ولذا جاءت في الدالة على الدخول ضمن... لتدقيق التعبير فيصير الفهم في كل ما يتلجلج أي بالغوص فيها جزءا جزءاً.

2. البنى المركبة:

أ) النسق الجملي:

تكرست ثنائية الخبرية والإنشائية في جمل النص لخدمة غرضه الهادف، وما يبدو أنه استخدم الجمل الخبرية والإنشائية بصورة متقاربة جدا حتى كادت تتساوى، وورود النص بهذا الشكل راجع لأهمية كل منهما في خدمة الغرض المنشود من النص؛ فالخبر الذي جاء هو مثبت لحقائق، مقرر لمعان على القارئ التنبه إليها، ثم إن الكلام لا يكون إلاّ بوجود معطيات تمثلها الخبرية، والإنشاء كما هو ملاحظ من الجدول يتوجه بالخصوص إلى الأمر، وهذا راجع إلى أن النص من الحاكم إلى الوالي أو المسؤول الذي دونه؛ فهو قد أرسل إليه بهذا الخطاب ليأمره بالالتزام بمجموعة من المسائل، بل هو يدرسه ويعلمه، ويأمره الالتزام بالدرس تطبيقا من خلال المزاوجة

بين الخبر والإنشاء، وهذه المزاوجة أدت إلى المساواة بين معرفة المسائل والقضايا المتعلقة بالأحكام والقضاء ، وبين التنفيذ لأمر الحاكم والتنفيذ لتطبيق العدل والحق.

ونشير إلى أن الخبر كما هو معروف إنما يدل على واقع قد يوصف بالصدق أو الكذب، وأن الإنشاء يدل على نسبة غير موجودة فيوجدها، إذاً فبناءً على ما هو واقع عليك يا أبا موسى أن تلتزم بأن توجد هذه المطالب وتحققها، فكأن المعاني التي أوردتها الجمل الخبرية هي بناء صوري يجب أن يملأه، أو يبنى على منواله المأمور في حكمه. أمَّا طبيعة الجمل فهي تجري على هذا النسق:

فافهم...
آس... } الأمر المباشر والنهي المباشر بالفعل وعليه.
لا يمنعنك...

الفهم الفهم ← أسلوب إغراء، فهو نوع من الأمر.

فالجمل الإنشائية في النص تعود كلها إلى الأمر، سواء الأمر المباشر كما في "افعل" أو غير المباشر "لا تفعل" التي تعني منطقيا "افعل النقيض"، أو الإغراء الذي يقدر بالزم أي "افعل" ولكن فيها نوع من التحبيب إلى الفعل، والترغيب فيه، والحث عليه.

فإن القضاء... البنية على...
فإنه لا ينفع... اليمين على من...
فإن الحق قديم... التوكيد الصلح جائز... } الجمل غير الفعلية المؤكدة على ما ابتدأت به والمركزة عليه
فإنه أنفى للشك... مراجعة الحق...

فإن أحضر بينته.... مراجعة الحق خير من...
وإلا استحللت.... صيغة الشرطية. فإنه أنفى للشك... } مع وجود المفضول أقل دلالة من حذفه، وهنا دلالة على قوة المعنى.

تميزت الجمل الخبرية بالتنوع بين الفعلية وغير الفعلية، ولو أن غير الفعلية تتفوق فيه، وهذه الصفة نضيف لها أن بعض الجمل جاءت مؤكدة بـ "إن" والتقديم في الجمل غير الفعلية دال على التأكيد على العنصر المقدم كما في « البيّنة على من ادعى»، ثم هناك صيغة جملة الشرط، والتفضيل في آخر النص.

3. الجانب البلاغي:

الإيجاز: وهو أن يكون اللفظ القليل مشارًا به إلى معان كثيرة بإيماء إليها، ولمحة تدل عليها"[20]، وهو نوعان: إيجاز قصر، وإيجاز حذف، وإذا بحثنا في نصنا هذا عن الإيجاز، فإننا نجده مثلا في قوله: «ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقد فقس الأمور عند ذلك» فإنه ركب هذه العبارة بحيث دلت "عند ذلك" على قياس الشبيه بالشبيه والمثل بالمثل وهذا المعنى لا تنجزه عبارة أخرى بألفاظ كألفاظها وبذات العدد من الألفاظ، وهذا النوع كما عند ابن الأثير: «قسم لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها»[21]، و في قوله

"فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه وإلاَّ استحللت عليه القضية"، "إلاّ": هنا عوضت تركيبا كاملا يقدر بـ"وإن لم يحضر بيّنته..."، فـ "إلاّ" التي تدل على النفي ونقض الجملة كاملة، جاءت وعوضت التكرار والإطالة، فجعلت من الفكرة عبارة موجزة دالة على كل هذا المعنى.

وأما الحذف فيظهر في قوله: "البيّنة (..) على من ادعى واليمين (..) على من أنكر"، حذف المسند في العبارتين للزيادة في التوكيد، وهذا إيجاز لطيف، بل دال على الدقة والتركيز.

4. الإيقاع الداخلي للنص:

الإيقاع عادة ما يرتبط ارتباطا وثيقا بالنص الشعري، بل هو ميزته الأساسية، ولكن للنص النثري أيضا موسيقى داخلية يمكن تتبعها، وتركيبة إيقاعية يمكن إبرازها، ليظهر مدى إمكانية الاندماج في النص قراءة وسماعًا؛ لأن الإيقاع عادة له أثر على النفس بليغ كونها تلتذ به، صحيح أن طبيعة نصنا هذا جادة ومخاطبة للعقل، وصحيح أنها صياغة لمضمون بالدرجة الأولى، لكن هذا لم يمنع وجود شكل له خصائصه التمييزية التي من بينها هذا الإيقاع الداخلي المتميز.

الترادف جرسا:

تكرار صوت واحد:
- قضاء ، فريضة
- آس بين الناس

تكرار لفظي :
- أحل، حلالا
- حرم ، حراما
- قضاء ، قضيته
- الفهم، الفهم

تكرار الميزان الصرفي
- شريف، ضعيف
- الأشباه، الأمثال
- أقربها، أشبهها
- أنفى، أجلى

تكرار نسق جملي
- على من ادعى.. على من أنكر

يمكن أن يظهر الإيقاع من خلال التكرار الصوتي واللفظي وغيره من التكرارات التي يسميها الدكتور محمد السرغيني "الترادف جرسا"[22]، فهذه التكرارات ساهمت في إيقاظ نغمات ثابتة رزينة لاحظ مثلا: "أحل حراما أو حرّم حلالا" كم فيها من تكرار؟

أحل حراما أو حرم حلالا
- تكرار جذر (أحل ، حرم، حلالا، حراما).
- تكرار صوتي .
- تكرار صيغة صرفية (حراما – حلالا)

وتكرار صوت الكاف، الذي تكرر كثيرًا خاصة لأن النص موجه إلى مخاطب (وجهك وعدلك ومجلسك)، والسجع في بعض المقاطع كما في قوله: «آس...بين الناس، بوجهك...ومجلسك...،في حيفك...من عدلك»، كما يلاحظ تكرار جذر لغوي في عبارات متقاربة مثلا: «الصلح جائز...إلاّ صلحًا»، «قضاء قضيته»، «فراجعت ترجع..مراجعة»، «إلى الحق، الحق قديم، مراجعة الحق».

والوحدات التركيبية الدالة على معنى كامل قد تكون جملة أو أكثر أو عبارة أو أقلَّ ، هذه الوحدات في النص متوسطة الطول ، إذ تتراوح ما بين حجم قوله: « وسنّة متبعة، اجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدًا ينتهي إليه» مما يسمح ببروز التناسب في الانتقال بين تمفصلات المعنى وبين تمفصلات الوحدات التركيبية، وهذا الوضوح في الحدود بين الوحدات يضفي على النص طابعا إيقاعيا يلائم توجهه.

وعمومًا فإن الجانب الإيقاعي هنا هو جانب عفوي[23] وتظهر عفويته من كونه تابع للإيجاز الذي يميز النص؛ فالمرسل كان يتحرى الاختصار والدقة وقصر العبارة، وهذا يخدم إيقاع النص ، وبالمقابل نجد أن للإيقاع الداخلي أهمية في إسهامه في جوانب التركيب والدلالة؛ فهو البنية السمعية للنص بمعنى أنه هيكل المعني الذي تراه الأذن، فهو من جهة يميز بين حدود التراكيب وفواصلها خاصة إذا كان هناك سجع، ومن جهة أخرى يساهم في تأكيد المعنى عن طريق التكرار الصوتي، وغيره من إيحاء الأصوات، وبعد هذا كله فهو يساهم في سهولة حفظ النص وتداوله وما أسهل أن تحفظ عبارات مسجوعة أو متناغمة قصيرة.

II.المستوى الشعري: ويعني مجموع الإسهامات الثقافية و السياسية والمادية التي عملت عملها في النص[24]

1. **البنية المنطقية** :

نحاول إيجاد صيغة منطقية تتبلور من خلالها معاني النص، فكل معنى تذكره إلا ويحيلك بالضرورة على نقيضه، والمعاني بأضدادها تعرف، لذا سنحاول استخراج بنية منطقية للمعاني التي وردت في النص، وذلك تبعًا لمنطق الثنائيات الضدية، متبعين في ذلك إيراد المعنى على شكل قضية تنتهي بنتيجة.

1) **ثنائية الفهم، التعمية (الجهل):**

موضوع ← الفهم

محمول ← الالتزام به

النتيجة ←إدراك الحق ومعرفته

2) **ثنائية القدرة على التنفيذ، العجز:**

الموضوع ←تكلم بحق لا نفاذ له

محمول ←لا ينفع (عدم منفعة الكلام.)

نتيجة ←الحق يجب تنفيذه لتحصل منفعته

من القضيتين(1) و(2) يمكن أن نخرج بنتيجة واحدة:

إدلاء بقضية+ فهم= معرفة الحق.

معرفة الحق + القدرة على تنفيذه= إحقاق الحق والقضاء به.

فهنا نتيجة المقدمة الأولى، كانت مقدمة للنتيجة العامة وهي (القضاء بالحق) فالعلاقة مبنية على تسلسل وتتابع.

3) ثنائية المساواة ،الحيف:

موضوع ← المساواة في وجهك ومجلسك وعدلك.

محمول ← الالتزام بها.

نتيجة ← عدم طمع الشريف وعدم يأس الضعيف

يلاحظ على هذه القضايا الثلاثة:

– أن الأولى والثالثة هي مكونة من أمر يتطلب الالتزام وتنفيذه، وهي القضية احتمالية لأن نسبتها غير موجودة في الواقع، وأسلوب الأمر هو الذي أوجدها، والالتزام هو الذي يوقعها، وبالتالي تحتمل الصدق والكذب. وما يضاف أن القضية الثالثة نتيجتها موجودة صارخة أدلى بها صاحبها في النص.

– بعد الترابط بين القضيتين الأولى والثانية يمكن أن نضيف خيطا ثالثا يجمعهما بالقضية الثالثة لدينا:

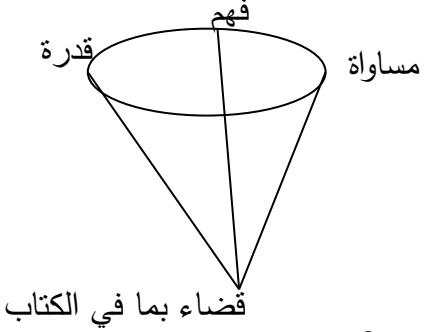
أ– الإدلاء بالقضية وطرحها يجب أن يكون إثره فهم من القاضي للنصوص، وفهم للأدلة في القضية، ثم القدرة على إحقاق الحكم، ينتج عنه العدل، وإعطاء الحق لأصحابه، والنتيجة لذلك الحكم بكتاب الله وسنة رسوله.

ب – المساواة في مجلسك ووجهك وعدلك يؤدي إلى عدم ميلك مع الشريف، وعدم التخلي عن الضعيف، والنتيجة العدل، والعدل بكتاب الله وسنة رسوله.

من (أ) و(ب) نستطيع أن نتذكر أن لنا جملة أولى في الرسالة لم نذكرها وهي قوله:

"فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة"، والتي يفهم منها أنها تعنى أن الحكم بين المتخاصمين يكون بما في الكتاب والسنة"، هذه الجملة المفتتحة للنص ترتبط بالفكرتين أو الحدين (أ)و (ب) فهي نتيجة لكليهما ألا تلاحظ؟

هذا يعني أن الباث أراد أن يعلمك أن جملته الأولى نواة، وأنه يلفها بقضايا تتدرج وتدور حولها، وتكسوها، لا، بل هي بنتها وجزؤها الذي لا يمكن أن يكون هو إلا بها، فالعدل بين الناس، والمساواة في القضاء لا يكون إلا إذا التزم بكتاب الله وسنة رسوله فهل بعده من تشريع أعدل؟ ويمكن أن نمثلها بالخطاطة:



4) ثنائية البينة ،العمى:

موضوع ← البينة على المدعي اليمين على المنكر

محمول ← إظهار البينة والحلف ضرورة

النتيجة ← 1- إثبات الدعوة أو توكيد الإنكار.
2 - الالتزام بمعرفة الحق.

- الملاحظ على هذه الثنائية، أنها موضوعة من شقين يصبان في ذات المجال، فالبينة واليمين كلاهما يؤتى به على سبيل البرهان والإثبات، سواء إثبات الدعوة أو إثبات الإنكار ولكن هناك حالة أخرى من العلاقة بين البينة واليمين تظهرها الخطاطة:

موضوع ← [البينة ← المدعى] [اليمين ← المنكر]

تقديمها تأديته

في غياب البينة

محمول ← الإثبات بالبينة
إثبات النقيض باليمين.

النتيجة ← إن لم يستطع المدعي الإثبات، يثبت المنكر إنكاره باليمين.

وهنا يكون مجرد رفع الدعوى يعطي الحق للمدعي ما لم يسقطه المنكر بيمينه مما يجعل القضية تستمر لانتظار البينة إن وجدت.

5) ثنائية الصلح، الخصام:

موضوع ← الصلح بين الناس.

محمول ← جوازه(بل هو واجب).

النتيجة ← ما لم يحل حراما أو يحرم حلالاً.

أولوية الصلح على القضاء(الحكم) لإزالة الضغائن بين المسلمين.

فإن تحقيق المحمول للموضوع وحصوله مقترن بشرط خارجي إضافي لا تتم القضية إلا به وهو الاستثناء؛ فالمحمول مطلق مادام نوع الموضوع محدد، وهو الصلح الذي لا يحل الحرام ولا يحرم الحلال.

6) ثنائية الحق، الباطل:

موضوع ← القضاء بغير وجه حق (باطل).

محمول ← ظهور بينة تغير مسار القضية (حق).

↓

نتيجة ← ضرورة التراجع عن الحكم الأول لصالح الحق كونه أصل وخير.

والملاحظ أن هذه القضية ترتبط بتلك المتعلقة بالبينة واليمين، ذلك أن الحكم بالباطل إنما لغياب البينة، والعدول عنه إلى الحق إنما لظهور البينة، وهي أيضا مرتبطة بتلك المتعلقة بالفهم، فإن الفهم ضرورة لوضع الأمور في نصابها.

القضاء بغير حق { – ظهور بينة / – تجل وفهم } ⟸ النتيجة تغير الحكم إلى الحق.

ونضيف هنا بأن ثنائية الحق والباطل هذه هي الثنائية المركزية في هذا البناء المنطقي كونها مدار النص ولبه.

7) ثنائية القياس ،الحكم بالنص (نص صريح):

قضايا لا نص فيها { – تلجلج وتردد / – فهم واجتهاد / – قياس على النصوص وغيرها. } ⟸ { ضرورة التثبت والوصول / لإيجاد حلول لما غاب وغمض الحق فيه }

والملاحظ في هذه الثنائية هو أهمية التدرج من حال التردد التي يكون عليها الحاكم (القاضي) إلى التثبت وإحكام العقل لأجل الفهم، بعد الفهم للمسألة يجري الاجتهاد بمقارنتها بشبيهاتها ومثيلاتها مما هو موجود، وهنا يأتي القياس لأجل الحكم فيما جهل حكمه ولم يتحدث عنه.

8) ثنائية الأمد وجلاء الشك، التعجيل والعمى:

الموضوع ← ادعاء الحق أو البينة

↓

محمول ← **الأمد**

إحضار البينة ← أخذ حقه

عدم المجيء بالبينة ← استحللت عليه القضية

النتيجة ← نفي الشك وجلاء العمى.

2. البنية الإحالية:

إن البينة الإحالية للنص متميزة بكونها تغترف من أهم رافد وهو القرآن الكريم كما أنها تأخذ من الحديث النبوي الشريف، كيف لا وهي من صنع الإسلام فكرًا ومضمونًا، وسيتضح ذلك من الرجوع إلى هذه الأصول، بمحتوى النص:

1- قوله:" القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة"، جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر، عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: «العلم ثلاثة، فما سوى ذلك فهو فضل، آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة عادلة»[25].

2- البينة: هي كل ما يبين الحق فهي أعم من البينة في اصطلاح الفقهاء، حيث خصوها بالشاهدين أو الشاهد واليمين[26]، وجاء ذكرها في القرآن الكريم كثيرًا منها قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ**﴾[الحديد 25] وقوله: ﴿ **وَمَا تَفَرَقَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَّابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَة**﴾ [البينة 4] وقيل إن البينة هنا تعني الرسول، بدليل قوله "رسول من الله"[27]، وقول النبي صلى الله عليه و سلم للمدعي: «أَلَكَ بَيِّنَةٌ»[28].

3- وقوله: «اليمين على من أنكر»، جاء في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَو يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْواهُمْ لادَّعَى قَومٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُم، وَلَكِنَّ اليَمِينَ عَلَى المدَّعَى عَلَيهِ»[29].

4- قوله: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا» روى الترميذي حديث عمرو بن عوف المزني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصُّلْحُ جَائِزٌ بَينَ المسْلِمِينَ إِلاَّ صُلْحًا حَرَّمَ حَلاَلاً أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا، وَالمسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً أَوْ أَحَلّ حَرَاماً»[30]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[الحجرات: 9]، وندب الزوجين إلى الصلح عند التنازع في حقوقهما فقال: ﴿**وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّلَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَير**﴾ [النساء: 128]، وقوله تعالى:﴿**إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوةٌ فَأَصْلِحُوا بَينَ أَخَوَيْكُمْ، وَاتْقُوا اللهَ لَعَلَكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[الحجرات:10].

5 - القياس[31]: والقياس على أنواع؛ من ذلك قياس العلة كما في قوله تعالى :﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون**﴾ [آل عمران: 59]، وقياس الدلالة كقوله تعالى:﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى، إنه على كل شيء قدير**﴾ [فصلت:39]، وقياس الشبه: كقوله تعالى: ﴿**إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل**﴾ [يوسف: 77].

وإضافة إلى اغتراف النص من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فإنّه ينهل أيضا من النثر الجاهلي؛ ذلك أن النثر الإسلامي في مرحلته الأولى كان امتدادًا للأدب الجاهلي في عدة خصائص[32]، فقد كان الأدب في هذه الفترة أدبًا مطبوعًا لا تصنع فيه ولا تكلف معه، وكان الإيجاز يسبقهم ويحول بينهم وبين الإلحاح، وكان النثر أشد حرصًا على الإفهام، وربما يرجع الاعتماد على الإيجاز إلى أن الحياة الإسلامية نفسها كانت في أول عهدها بالتفتح، كانت تدعو إلى الإيجاز؛ فالعربي يؤمن باللمحة الخاطفة وتقنعه الكلمة السريعة، ويعوضه صمت الصحراء وامتداد الصدى فيها عن امتداد الصدى بالحديث. وكان الأدب إلى ذلك غاية اجتماعية وغرضًا أصيلاً في حياة الجماعة تتخذ منه سبيلها إلى تأييد دعوتها وتأدية أغراضها الكبرى[33]، ولذلك لا غرو أن هذه البنية الشكلية المعنوية الموجزة تأخذ من سمات بلاغة النثر الجاهلي فهي ذات دقة وإيجاز، وذات

أسلوب مطلق لا تكلف فيه وربما هي متوافقة مع مقولة أبي هلال العسكري حين قال :«واعلم أن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر و النهي سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ لأن حكم ما ينفذ عن السلطان في كتبه شبيه بحكم توقيعاته من اختصار اللفظ وتأكيد المعنى إذا كان الأمر والنهي واقعين في جملة واحدة لا يقع فيها وجوه التمثيل للأعمال»[34].

III.المستوى الحسي: ويعني تحليل النص في علاقاته بالمبدع وبالمتلقي[35].

1. العلاقات المعنوية الداخلية (المسارات):

1.1. **سيميائية المقدمة** (الافتتاح): تتميز البنية النموذجية للرسائل أو الكتب الرسمية بتضمنها ما يلي[36]: البسملة؛ وعنوان الجهة الحكومية المصدرة للكتاب؛ والاسم الموجه له هذا الكتاب؛ والتحية الافتتاحية؛ وصلب الرسالة (موضوعها)؛ والتحية الختامية؛ والتوقيع.

ابتدأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسالته بعد البسملة بذكر المرسل الذي هو هو، وذكر اسم الشخص الموجه إليه الكتاب، ثم أعقبها بالتحية، ومنها إلى صلب الموضوع، قال: «بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس سلام عليك، أما بعد؛ ...»، وهذه المقدمة لا توجد فيها بعض عناصر الرسائل التي دونت فيما بعد، والتي قد تتضمن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد البسملة والتحميد الذي يكون عادة بعد قوله: "أما بعد"[37]، فالملاحظ أنه اقتصر على أهم العناصر ذات الدلالة المركزية، وهذه سمة ميزت الرسائل الديوانية في صدر الإسلام[38]، إذ أنها تتميز بالاختصار والدقة، ومعنى البسملة هو أن ما تتضمنه إنما مرسل بالتوكل على الله، بالرجوع فيه إليه سبحانه، والله المعين عليه.

– المرسل والمرسل إليه: جاء ذكرهما بشكل يلفت الانتباه؛ فهو قال: «من عبد الله عمر بن الخطاب» فعمر بن الخطاب رضي الله عنه يتشرف بعبوديته لله تعالى لذا قال: «من عبد الله»، ثم المرسل إليه «إلى عبد الله بن قيس»، وهذه لم تصطنع، إنما جاءت تلقائيا كون الأشعري هو عبد الله بن قيس حقيقة، والحقيقة أن دلالة "عبد الله" التي أطلقها عمر رضي الله عنه على نفسه عميقة جدا؛ فهو يتشرف بعبوديته لله من جهة؛ ومن جهة أخرى يحيل إلى أن أقواله وأفعاله كلها في سبيل الله، فهو الملتزم بما أمر الله التقي الورع، وغني عن الذكر ما لعمر من خصال وإيمان وهدى.

وهو إذ جعل رسالته التي هي من حاكم إلى أحد ولاته باسم "عبد الله إلى عبد الله" فإنما يرمي إلى أن الحاكم والوالي إنما هما عبيد الله لا علو لهم على الناس، إلا بما يقدمانه من عمل، وما يوكل إليهما من مهام لرعاية الرعية وتنظيم شؤونها، والناس سواسية أمام الله، سواء الحاكم والمحكوم، ثم تتضح قوة ذلك عندما يقول: «..أمير المؤمنين» فهذه تعنى علو المنزلة والرئاسة والصدارة، والأخرى "عبد الله" تعني التدني والتذلل والخضوع

للمعبود، فهذه المفارقة توضح مدى ما يتصف به عمر رضي الله عنه من تمسكه الشديد بإيمانه الذي يدعو إلى المساواة والعدل وتقوى الله، ولو أن عبارة " أمير المؤمنين" لها صلة وثيقة بالجانب الإسلامي الذي أفرزها، فهذا اللقب أطلقه الناس على الرجل الذي اختاروه ليسوسهم بتشاور منهم، وبإدراك لإيمانه وتمسكه بما في كتاب الله وسنة رسوله، فنلاحظ رغم هذه الإيحاءات التي تحملها العبارة، فإنه ارتأى أن يضيف قوله "عبد الله" لكي لا يبقي إيحاءات خلاف ذلك بما أن "أمير المؤمنين" لها اتجاهين من الإيحاءات المعنوية.

– التحية: في قوله "سلام عليك" جاءت لفظة "سلام" معراة من "ال" التعريف، مطلقة سابحة شريدة، تبدو خفيفة من غير الألف واللام ، التنكير يعني العموم، فالسلام عام بقدر ما تصل إليه دلالات السلام، قيل "السلام عليكم" تعنى "الأمان لكم" أي أنت في أمان مني، وأنا استأمنتك على نفسي، ولكن في مجال المراسلة هي تعني أيضا "هذه تحية إليك، أو أسلم عليك، أو أسال عنك"، فهي تجمع عدة دلالات في عمومها هذا وإطلاقها رغم خفتها وقصر عبارتها، فكانت خير مدخل يبدأ بعده الحديث حول موضوعه الذي راسل من أجله عبد الله بن قيس، وجاء قوله "أما بعد" عنصر الفصل بين المقدمات من بسملة وذكر للمرسل والمرسل إليه والتحية، وصلب الموضوع المتمثل في رسالته التي هي وصايا وإرشادات وتوجيهات قيمة حول موضوع القضاء، وما يلتزم به القاضي.

3.1. بنية علاقة الحقول الدلالية فيما بينها في النص:

فهم	حق	بينة	غموض	باطل	قياس	قضاء
افهم	الحق7مرات	بينة	ادعى	الباطل	الأشباه	القضاء
راجعت	أحل	3مرات	أنكر	أنكر	الأمثال	الصلح
هديت	حلالاً	اليمين	تلجلج	حراماً	قس	قضيته
لرشدك	عدلك		العمى	حرَّم	أقربها إلى	القضية
أجلى	آس		الشك	حيف	أشبهها	استحللت

إن كل عمود من الثلاثة الأول مبني على خلاف مقابله من الأعمدة الثلاثة التالية لهم على الترتيب، غير أن العمود السابع المتعلق " بالقضاء" عام يشمل الجميع بصورة أو بأخرى أي له علاقة بباقي الحقول، لدينا (فهم/غموض)، (حق/ باطل)، (بينة/ قياس)، ثم يأتي عمود "قضاء" ليشمل كمدلول كل الحقول الأخرى بترابطه معها بعلاقة ما، نلاحظ أن "فهم" مرتبط دلاليا بـ"حق" و"بينة" ثم بالقضاء عامة، فهو عمود إيجاد الحق والعدل في القضاء، " والحق" ركيزة القضاء، بل هو لب الموضوع، وأما "البينة" فإنها وسيلة لاستجلاء الحق و بالتالي القضاء، و" القياس" كذلك هو وسيلة ولو ضعيفة أحيانا لإيجاد الحق مقارنة بالبينة، وأما "الغموض" فإنه يخفي الحق، كذلك الباطل فهو يخفي الحق وبالتالي سوء القضاء.

ويمكننا أن نبحث في العلاقات التي يمكن أن تشكل مسارات معنوية تتصل من خلالها الحقول الدلالية التي استخرجناها، محاولين ربطها بأهم المدلولات التي يبنى عليها النص:

علاقة القضاء بالحق: القضاء بما فيه من تشريع ونصوص وأحكام، بما فيه من إجمال وتفصيل هو الفصل بين الناس في خصوماتهم وفي اختلافاتهم ونزاعاتهم، القضاء ببساطة هو إعطاء الحق لصاحبه بعد محاورة وفهم وتدقيق ومدارسة من كل الجهات، فالقضاء بكل ما فيه من مدارسات كما ذكرنا مبني على معرفة الحق وإرجاعه لذويه، فكأنما القضاء والحق وجهان لعملة واحدة، فلا يمكن الحديث عن القضاء دون الحديث عن الحق، حتى في السائل التي لا يكون فيها موضوع النزاع مادياً، فهي علاقة الشيء بصورته، وبناءً على هذا المعطى الذي هو أن القضاء يبحث في الحق ويتخذه ضالته، فإننا نتجه للبحث في علاقة مدلول الحق بباقي مدلولات الحقول؛ ففي علاقة القياس بالحق: يكون الحق خفيا غير ظاهر قبل القياس، ويأتي القياس لمحاولة تجليته، فالقياس سابق والحق نتيجة له ولإعماله، والقياس جيء به لإيجاد الحق فهو يجليه بعد أن كان خافيا، وعلاقة الباطل بالحق: إنهما يقومان على المناقضة إن غاب أحدهما حضر الآخر، فلا يجتمعان في قضية واحدة، وعلاقة الغموض بالحق: أنّ الغموض يعني التعمية عن الحق، وبالتالي بروز الباطل، فالغموض لا يؤدي إلى الحق؛ بل إلى نقيضه فهو قائم على علاقة معاكسة للحق ولإظهاره، وفي علاقة البينة بالحق: البينة تقف وسط القضية أي وسط الموضوع، إن ظهرت ظهر الحق وإن غابت غاب، ولم ينجل، البينة إذن أداة تبرز الحق و تبين عنه ، وأمّا في علاقة الفهم بالحق: فالفهم بالضرورة يقف في صف الحق، وهو سابق عليه، إن فهم الموضوع بان الحق وظهر، فالفهم يؤدي إلى إيجاد الحق ومعرفته.

الحقيقة أن اختيارنا للبحث في البينة العلاقة بين الحقول الدلالية من خلال علاقة الحقول بحقل " الحق" لم يكن اعتباطاً، بل لأن " الحق" كما قلنا سابقا هو لب "القضاء" وهو ضالته، ومن جهة أخرى نجد الباث يركز موضوعه عليه في النص فقد وردت كلمة "حق" في النص سبع مرات، مع مراعاة حجم النص وحجم أفكاره وما تدور حوله فالحق هو بؤرة الموضوع وهو بؤرة القضاء التي بنيت عليها شرائع ونصوص وبني عليها نص الرسالة التي بين أيدينا.

2. العلاقات الخارجية "النص بين الباث والمتلقي":

هل انحصرت فئة المتلقين في الأشعري؟ وما طبيعة التلقي الجديد للنص؟ وما مدى صلاحية النص في أزمنة وبيئات أخرى؟

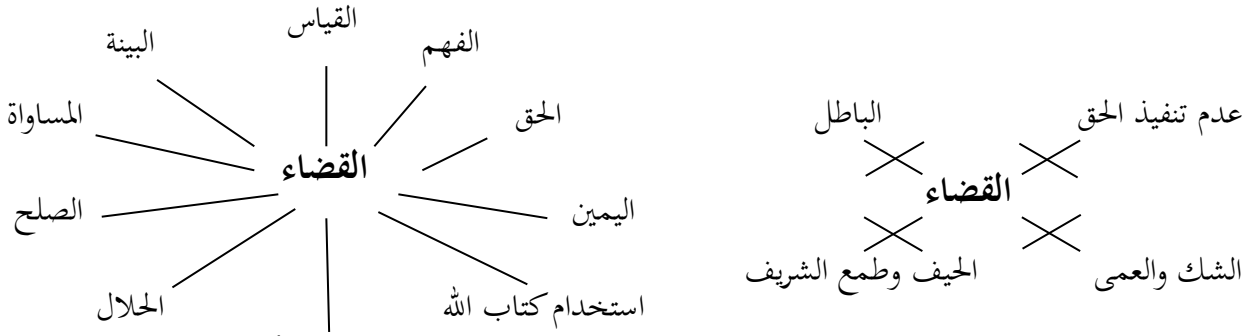
موضوع الرسالة: القضاء، وهو من المهام الصعبة الموكلة إلى الحاكم، وذات رباط شديد القوة بتعاليم الإسلام لما جاء به من أحكام وتشريع في مختلف مجالات الحياة، فموضوع القضاء إذن جعل القاضي يتقيد بمعرفة أصول التشريع وما يتبعه من قياس واجتهاد، وعلم في مختلف القضايا والشؤون المتعلقة بالأفراد و الأمة، ولئن كان الناس يتشبثون بالدين حديث العهد فهم يتحرون الالتزام به، وهذا ما نلاحظه من خلال موقف

عمر بن الخطاب في هذه المسألة، وما يتميز به من صرامة، ودقة في الاهتمام، وتركيز في تفاصيل الموضوع، حتى أصبحت رسالته مشهورة دستوراً متبعاً لمن جاء بعده من القضاة و المسؤولين.

إن النص الذي بين أيدينا كان موجها إلى متلق معين، وهذه الفكرة يعرفها مسبقا الباث، فهو الذي يوجه خطابه إلى ذلك المتلقي، وإذا أردنا معرفة مدى التواصل أو الارتباط التواصلي بين الباث والمتلقي من خلال النص، فإنه يتضح بعدة عناصر، منها: عبارة التحية "سلام عليك"، وصيغ الأمر والنهي الموجهة إلى المتلقي، والضمائر التي توجه إلى المخاطب كما في: في صدرك، أخذتَ له بحقه، استحللت، آس...، وهذه الضمائر، وصيغ الأمر الموجهة كلها إلى المتلقي تملأ النص كله، وتحمل المتلقي على التنبه لأن الخطاب موجه إليه، يضاف إلى ذلك وسيلة التواصل ممثلة في اللغة العربية وفي الكتابة كأداة ناقلة للغة فهي واحدة بين الباث والمتلقي، ثم باقي ما يدخل تحت شروط التواصل، فالسنن الثقافية والاجتماعية والبيئة كلها واحدة.

ثم انتقل النص من أحادية المتلقي التي كان الباث يقصدها إلى تعدد المتلقين من فئة العلماء، والقضاة والفقهاء...، النص هنا لم يخرج عن إطار الفئة المحددة للمتلقين (قضاة، علماء)، ولكنه لم يقتصر على قاض واحد (أبو موسى)، وهذا لا يمنع أن يكون المتلقي من غير فئة القضاة فالنص مأخوذ كدستور، لا كقطعة فنية أدبية، لأنه محمول على الجدية، ولا مجال للفنية والإبداع في المعاني إلا ما جاء من تنسيق وبلورة، والسؤال المتبادر الآن: لماذا لم ينته النص بانتهاء قراءته الأولى؟ أي عند أبي موسى الأشعري؟ أي لماذا لم يمت النص رغم أنه قلنا لا تتوالد المعاني فيه، بل هي ثابتة؟

وللإجابة عن سؤالنا يكفي ملاحظة موضوع الرسالة، ونمط ما فيها من دلالات ترتبط بهذا الموضوع، أي يكفي ملاحظة نسيج المعاني ونظامها في إيراد موضوع القضاء حتى نجد الجواب، فإن هذا المضمون المتعلق بالقضاء جاء بشكل مركز تلتف حوله المعاني والدلالات وتترابط معه وفق علاقات مختلفة:



فهذا النص يتميز ببنيته الشكلية والمعنوية الخاصة، وأما المعاني فهي عامة موجودة معروفة أي يتميز بطريقة بلورة المعنى وإيجازه وإلمامه، فقد رأى الفقهاء إلمامه بمسائل عدة في القضاء مع الدقة والتركيز، وهذا واضح من خلال شكل التعبير الذي هو قليل مركز، ومضمون التعبير ممثلا في أبواب وفصول في القضاء.

إن هذه الطيات التي فتحناها في النص وبسطناها، فأظهرته واسعا رحبا إنما هي توضح دقة الإيجاز وبلاغته فيه، فالمدلولات في النص محددة، والدوال خالية من الإيحاءات، النص لا يحتوى على رمزية مطلقا،

وهذه السمة هي ميزة للكتابة في العهد الراشدي، فالأسلوب يتميز بمجاراة السجية والطبع، مع رقة الكلام، ومتانة تركيبه، والميل الظاهر إلى الإيجاز الوافي بالغرض والإغضاء عن فضول الكلام[39]، ولم يقصد عمر رضي الله عنه، ولا غيره من الخلفاء إلى ضرب من ضروب التزيين والتنميق، فقد كان حسبهم أن يؤدوا أغراضهم في لغة جزلة متينة[40] تكون طريقا إلى الإفهام والإصلاح، فهي رسول العقل إلى العقل، وليست مركبا لإظهار المهارة والحذق، ففيها الإيجاز والسلاسة والوضوح، وليس فيها الزخرف والتطويل[41]فهذه آراء ذكرها بعض دارسي الأدب من أمثال الدكتور شوقي ضيف وحنا الفاخوري، وهذا ما توصلنا إليه من خلال دراسة نص الرسالة.

أخيرًا نختم بهذا السؤال الذي أفرزته الدراسة: أيصلح النص للدراسة السيميائية ؟ وهل تفيد السيميائية هذا النمط من النصوص؟

أما الشق الأول من السؤال؛ فيبدو أنّ السيميائية تصلح لأن تدرس أنظمة العلامات الدالة كلها، والنص عبارة عن دليل واحد متكامل، وقد لاحظنا كيف استخرجنا بواسطة هذا المنهج بناء المعنى في النص وبلورته. ولكن أتفيده السيميائية؟ يبدو لي أنه ليس بكافٍ أن تعرف تَشَكُل المعنى أي بناءه وعمقه، وهو معنى شفاف هكذا، بل إنّ أهم ميزة في هذا النوع من النصوص هي تركيبتها البنيوية، والسيميائية لا تركز على البنية الشكلية إلاّ من خلال مساهمتها في إجلاء المعنى، وهذا ما لم يخدم النص ولم يظهر جمالياته.

---

[1]- CF. luisj- prieto. la semiologie in encyclopèdie de la pliade paris 1988(W.R.F)p 93 عن: محمد السيرغيني، " محاضرات في السيميولوجيا"، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1987، ص 05 .

[2]- انظر ميشال أريفية وآخرون: السيمائية أصولها و قواعدها، ترجمة رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف- الجزائر.

[3]- محاضرات في السيميولوجيا ، ص 19.

[4]- السيميائية أصولها و قواعدها، ص 32.

[5]- محاضرات في السيميولوجيا، ص 50- 51.

[6]- نفسه ، ص 52.

[7]- نفسه ، ص 53.

[8]- نفسه ، ص 53.

[9]- محاضرات في السيميولوجيا ، ص 51.

[10]- عبد القاهر الجرجاني : "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، تقديم ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا -بيروت- ط2002، ص 103.

[11]- محاضرات في السيميولوجيا ، ص 51.

[12]- السيميائية أصولها و قواعدها، ص 55-56.

[13]- Fontanille Jaque sémiotique et littérature essais de méthode presser universitaires de paris, France, 1edition,1997,p 1.

[14]- محاضرات في السيميولوجيا، ص 51.

[15]- نفسه ص 51.

[16]- هذا نص الرسالة« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَمِيرِ المؤمِنِينَ، إلى عَبْدِ اللهِ بنِ قَيسٍ، سَلاَمٌ عَلَيكَ ، أَمَا بَعْدُ:

فَإِنَّ القَضَاءَ فَرِيْضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيكَ، فَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍ لاَ نَفَاذَ لَهُ، آسِ بَينَ النَّاسِ بِوَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ، حَتَى لاَ يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلاَ يَيْئَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ.

البَيِّنَة عَلَى مَنْ اِدَعَى، وَاليَمِين عَلَى مَنْ أَنْكَرَ، وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَينَ المسْلِمِينَ إِلاَّ صُلْحاً أَحَلَّ حَرَاماً أَوْ حَرَّمَ حَلاَلاً، لاَ يَمْنَعَنَّكَ قَضَاءٌ قَضَيتَهُ اليَومَ فَرَاجَعْتَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الحَقِّ، فَإِنَّ الحَقَّ قَدِيمٌ، وَمُرَاجَعَةُ الحَقِ خَيرٌ مِنْ التَمَادِي فِي البَاطِلِ.

الفَهْمَ الفَهْمَ فِيمَا تَلَجْلَجَ فِي صَدْرِكَ مِمَا لَيسَ فِي كِتَابٍ وَلاَ سُنَّةٍ، ثُمَّ اعْرِفْ الأَشْبَاهَ وَالأَمْثَالَ، فَقِسْ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَاعْمَدْ إِلى أَقْرَبِهَا إِلى اللهِ، وَأَشْبَهِهَا بِالحَقِّ، وَاجْعَلْ لِمَنْ اِدَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيهِ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَإِلاَّ اسْتَحْلَلْتَ عَلَيهِ القَضِيَّةَ، فَإِنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِ وَأَجْلَى لِلعَمَى».و يمكن الرجوع إليها مثلاً في إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997م، ص140.

[17]– محاضرات في السيميولوجيا، ص 88.

[18]– سعيد بوفلاقة : في سيمياء الشعر العربي القديم، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، 2004،ص19

[19]– نفسه، ص 21.

[20]– أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة و الشعر، تح ضبط/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط 2– 1989، ص 195.

[21]– مختار عطية: الإيجاز في كلام العرب و نص الإعجاز، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية– 1997، ص 17.

[22]– محاضرات في السيمولوجيا، ص127.

[23]– محمد ربيع: التعبير الوظيفي، دار الفكر، الأردن، ط1991،1،ص101.

[24]– محاضرات في السيميولوجيا، ص88.

[25]– ابن القيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت 1996، ج1، ص68.

[26]– المصدر نفسه، ج1، ص 71.

[27]– موسى بن محمد القليبي: معجم الألفاظ القرآنية و معانيها، تح: محمد محمد داود، مكتبة الآداب، القاهرة ط1، 2002، ص 62.

[28]– أعلام الموقعين، ج1،ص71.

[29]– المصدر نفسه، ج1، ص 80.

[30]– المصدر نفسه، ج1، ص 84.

[31]– المصدر نفسه، ج1،ص101 وما بعدها.

[32]– عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي [الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية]، دار العلم للملايين، بيروت، ط/ أفريل 1981،ج1،ص254.

[33]– حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه(الأدب العربي القديم)، دار الجيل، بيروت– ط2، 1991،ج1،ص314.

[34]– الصناعتين الكتابة والشعر، ص173.

[35]– محاضرات في السيميولوجيا، ص 88.

[36]– التعبير الوظيفي، ص 92.

[37]– الطاهر محمد توات: أدب الرسائل في المغرب العربي بين القرنين السابع و الثامن، ديوان المطبوعات الجامعية– 1993، ص 381.

[38]– التعبير الوظيفي، ص 89.

[39]– كمال اليازجي: الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، دار الجيل، (بيروت) لبنان، ط1، 1986، ص 29.

[40]– شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف– القاهرة، ط 11 ، (د ت)، ص 98.

[41]– حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي و تاريخه، دار الجيل، بيروت– ط2، 1991، ج1، ص404.